الأسس الفلسفية للخدمة الاجتماعية

أ.د. عبد الرحمن صوفي عثمان ●
د. نورالدين الشابي ●●

الملخص:

لما كانت الفلسفة ذات صلة بالميتافيزيقا يعتقد عامة الناس أنها مبحث نظري منفصل عن الواقع. ذلك ما يبدو للوهلة الأولى، ولكن تمحيص النظر وتعميقه يظهران أن الفلسفة ليست بعيدة كل البعد عن واقع البشر، ولعل ذلك ما يفسر وجود مبحث صلبها يسمى «الفلسفة الاجتماعية» و «التفكير الاجتماعي». وبالمثل فإن الخدمة الاجتماعية ليست غريبة تمام الغربة عن الفلسفة، طالما أنها يمكن أن تستفيد منها.

وقد سعى هذا البحث إلى تحقيق هدفين رئيسيين أولهما هدف نظري يتمثل في التعرف على طبيعة العلاقة بين الفلسفة والخدمة الاجتماعية من خلال بيان أهمية المقاربة الفلسفية لمسائل متعلقة بالخدمة الاجتماعية من ناحية، وكذلك التعرف على الأسس الفلسفية للخدمة الاجتماعية وهي أسس إنسانوية وإيثيقية ومدنية وإبستيمولوجية. أما ثانيهما فهو هدف عملي ويكمن في

● أستاذ العمل الاجتماعي (الخدمة الاجتماعية)- قسم علم الاجتماع والعمل الاجتماعي- كلية الآداب والعلوم الاجتماعية- جامعة السلطان قابوس- سلطنة عمان.
●● أستاذ الفلسفة المساعد- قسم علم الاجتماع والعمل الاجتماعي- كلية الآداب والعلوم الاجتماعية- جامعة السلطان قابوس- سلطنة عمان.

ضرورة التفكير في سبل الاستفادة عمليا من المقاربة الفلسفية للفرد والمجتمع، والاستعانة بها، على وجه الخصوص، في تعزيز الخطاب النظري للخدمة الاجتماعية وفي تكوين شخصية الاختصاصيين الاجتماعيين.

وقد اعتمد هذا البحث على المنهج التحليلي-التركيبي الذي يقضي، في مرحلة أولى، بتفريع المشكلة الرئيسية إلى مشكلات فرعية ومحاولة فهم كل واحدة منها على حدة للخروج، في مرحلة ثانية عن طريق التركيب بنتائج عامة.

الكلمات المفتاحية: الفلسفة، الأسس الفلسفية، الخدمة الاجتماعية.

مشكلة البحث

قد يبدو لعامة الناس أن الحديث عن علاقة ممكنة بين «الفلسفة» و «الخدمة الاجتماعية» أمر غريب ومثير للدهشة للتعارض المُفترض بينهما، حيث يُعتقد أن الفلسفة، لارتباطها بالميتافيزيقا، مبحث نظري منفصل عن الواقع، في حين أن الخدمة الاجتماعية، على نحو ما يظهره اسمها، تتنزل صلب الواقع البشري الاجتماعي. ذلك ما يبدو للوهلة الأولى، ولكن تمحيص النظر وتعميقه يظهران أن الفلسفة ليست بعيدة كل البعد عن واقع البشر، ولعل ذلك ما يفسر وجود مبحث صلبها يسمى «الفلسفة الاجتماعية» و « التفكير الاجتماعي». وبالمثل فإن الخدمة الاجتماعية ليست غريبة تمام الغربة عن الفلسفة، طالما أنها يمكن أن تستفيد منها، وهو ما يظهر اليوم من خلال أمرين:

- أولهما أن أهم كتابات المتخصصين في الخدمة الاجتماعية حول تخصصهم لا تخلو من الحديث عن «فلسفة الخدمة الاجتماعية» وعن تعريف الفلسفة والإقرار بأهميتها. وهو ما يظهر مثلا من خلال دراسة (خاطر،2004 :26)، ودراسة (صالح،2004 :37)، ودراسة (علي، 2003: 63).
- في كثير من مراكز تكوين الاختصاصيين الاجتماعيين اليوم، خاصة في أوروبا. ومنها على سبيل المثال: «المعهد العالي للخدمة الاجتماعية» بباريس، و«المعهد الأوروبي العالي في الخدمة الاجتماعية» بفرنسا، و«المعهد العالي للتكوين الاجتماعي والاتصال» ببروكسيل.

ولذلك يبدو من المشروع التفكير في العلاقة بين الفلسفة والخدمة الاجتماعية على جهة بيان انغراس المباحث الفلسفية في الواقع الاجتماعي، وحاجة الخدمة الاجتماعية اليوم إلى روافد فلسفية تأسيسية يمكن أن يستفيد منها الاختصاصي الاجتماعي في مباشرته لعمله.

ويسعى البحث الراهن للإجابة عن السؤال الرئيسي التالي: ما هي الأسس الفلسفية للخدمة الاجتماعية؟

أهمية البحث

تكمن أهمية البحث في كونه يمثل مدخلا لبيان أهمية الفلسفة في فهم أسس الخدمة الاجتماعية. حيث يؤكد الباحثان أن الفلسفة، وإن كانت تتضمن مباحث ميتافيزيقية في جانب منها، فإنها مرتبطة أيضا بواقع البشر. والخدمة الاجتماعية يمكن أن تستفيد من الفلسفة استفادتها من العلوم الأخرى كعلم الاجتماع وعلم النفس والأنثروبولوجيا.

أهداف البحث

للبحث هدفان، معرفي نظري وآخر عملي.

أ – أما الهدف المعرفي النظري فيتمثل في:

- التعرف على طبيعة العلاقة بين الفلسفة والخدمة الاجتماعية على جهة بيان أهمية المقاربة الفلسفية لمسائل متعلقة بالخدمة الاجتماعية.
- والتعرف على الأسس الفلسفية للخدمة الاجتماعية وهي أسس إنسانية وإيثيقية ومدنية وإبستيمولوجية.

ب – وأما الهدف العملي فيكمن في ضرورة التفكير في سبل الاستفادة عمليا من المقاربة الفلسفية للفرد والمجتمع، والاستعانة بها، على وجه الخصوص، في تعزيز الخطاب النظري للخدمة الاجتماعية وفي تكوين الاختصاصيين الاجتماعيين.

تساؤلات البحث

للبحث تساؤل رئيسي هو: ما هي الأسس الفلسفية للخدمة الاجتماعية؟

ويتفرع عن هذا السؤال الرئيسي التساؤلات الفرعية التالية:

1. التساؤل الفرعي الأول: ما الأساس الإنساني للخدمة الاجتماعية؟
2. التساؤل الفرعي الثاني: ما الأساس الإيثيقي للخدمة الاجتماعية؟
3. التساؤل الفرعي الثالث: ما الأساس المدني للخدمة الاجتماعية؟
4. التساؤل الفرعي الرابع: ما الأساس الإبستيمولوجي للخدمة الاجتماعية؟
5. التساؤل الفرعي الخامس: ما هي وجوه استفادة الخدمة الاجتماعية من الفلسفة؟

مفاهيم البحث

أ - الفلسفة:

من المفاهيم التي تعددت تعاريفها بتعدد الأنساق الفلسفية تاريخيا. ولكن يمكن أن نعرف الفلسفة لغويا واصطلاحا كما يلي:

- **المعنى اللغوي:** الفلسفة كلمة يونانية (φιλοσοφία)، معناها الاشتقاقي حب الحكمة. حيث يعود المعنى الاشتقاقي والدلالة اللغوية لكلمة «الفلسفة» (Philosophy) إلى لفظين يونانيين هما: فيليا (φιλία) وتعني محبة، وصوفيا (σοφία) وتعني الحكمة، فيكون معنى الفلسفة، محبة الحكمة. ومن بين ما تشير إليه الحكمة في اللغة العربية التفكير الصحيح والعمل المتقن وسداد الرأي وصوابه. فالحكمة تدل إذن على ممارسة التفكير الصحيح القائم على البرهان، وعلى مزاولة العمل المتقن المحكم (ابن منظور،1997).
- **المعنى الاصطلاحي:** الفلسفة هي السعي نحو المعقول ومحاولة للكشف عن معاني الأشياء وبحث عن قيمة الحياة الإنسانية. والتفلسف هو ضرب من النظر العقلي الذي يهدف إلى معرفة الأشياء على حقيقتها. ويمكن تصنيف المواضيع الكبرى للفلسفة بردها إلى ثلاثة مجالات أساسية: الوجود والمعرفة والقيم. وهي مجالات تدرسها ثلاثة فروع فلسفية كبرى هي الأنطولوجيا (علم الوجود)، ونظرية المعرفة، والأكسيولوجيا (علم القيم). ومن ثم فإن الفلسفة اصطلاحا تفكير عقلي ذاتي ومنطقي وإشكالي وشمولي في مباحث ثلاثة هي الوجود والمعرفة والقيم (عبدة، 1999: 13).

ب- الخدمة الاجتماعية:

الخدمة الاجتماعية كمهنة معاصرة ظهرت في المجتمعات الحديثة منذ أوائل القرن العشرين كاستجابة حتمية لحاجات الإنسان بهدف مساعدته على سد احتياجاته ومواجهة مشكلاته والوصول إلى توافقه وتكيفه مع ذاته ومع المجتمع الذي يعيش فيه، وهى نوع من الخدمة المهنية التي تعتمد على قاعدة من المعرفة العلمية، والمهارات المختلفة في ميدان العلاقات الإنسانية، وتمارس في مؤسسات اجتماعية بغرض مساعدة الأفراد والجماعات والمجتمعات على تنمية قدراتهم والوصول إلى تحقيق علاقات مرضية ومستويات ملائمة من الحياة في إطار احتياجات وإمكانيات المجتمع بأسلوب علمي دقيق.(عثمان، 2014: 113-114)

وتؤدي الخدمة الاجتماعية دورا مهما في النهوض بالمجتمع الإنساني عن طريق حل المشكلات

الاجتماعية والتخفيف من حدة المشكلات، وتظهر أهمية هذا الدور كلما اتسع نطاق المجتمع وتعرض لتيار التغير الاجتماعي، وتبعا لتطور المجتمع وتعدد مظاهر النشاط الإنساني فيه تظهر أهمية الخدمة الاجتماعية (عثمان ،2014: 17)

وتعرف الخدمة الاجتماعية على أنها مهنة لها قاعدتها العلمية المستمدة من بعض معارف العلوم الإنسانية من ناحية، ومن معارف توصلت إليها بنفسها بفضل خبراتها الميدانية من ناحية أخرى، ولها طرقها المهنية التي تساعدها على تحقيق أهدافها التي انشئت من أجلها. (عثمان وآخرون، 2010: 104).

ويرى (حمزة، 2015) أن الخدمة الاجتماعية هي المهنة التي تعزز التغيير الاجتماعي، وتعمل على حل المشكلات المرتبطة بالعلاقات الإنسانية، وتمكين الناس وتحريرهم من أجل تعزيز رفاهيتهم باستخدام نظريات السلوك الإنساني والأنساق الاجتماعية، وتتدخل الخدمة الاجتماعية في نقطة التفاعل بين الناس وبيئتهم الاجتماعية، وتعتبر حقوق الإنسان والعدالة الاجتماعية شيئاً أساسيا للخدمة الاجتماعية. (حمزة، 2015: 33)

ومن خلال استعراض المفاهيم السابقة، يتفق الباحثان مع (عثمان، 2014) في المفهوم الإجرائي للخدمة الاجتماعية، وذلك على النحو الآتي:

1. أن الخدمة الاجتماعية مهنة لها قاعدة علمية تكونت من:

أ - المعارف المستعارة من العلوم الأخرى مثل (علم النفس، علم الاجتماع، علم الاقتصاد، علم الانثروبولوجيا، علم النفس الاجتماعي، وهكذا).

ب - الخبرات الميدانية من خلال ممارستها في مختلف مجالات الحياة في المجتمع.

2. مهنة تهدف إلى إحداث تغييرات مرغوب فيها في الأفراد والجماعات والمجتمعات بقصد إيجاد تكيف متبادل بين الأفراد وبيئاتهم الاجتماعية.
3. تعمل الخدمة الاجتماعية في مجالات متعددة منها (المجال المدرسي، الطبي، الشباب، الأسرة، الطفولة، المسنون، رعاية الأحداث.. الخ)
4. يمارسها اختصاصيون اجتماعيون يلتزمون بالأخلاق المهنية وبفلسفتها وأهدافها ومبادئها وقيمها.
5. تمارس الخدمة الاجتماعية في مؤسسات اجتماعية سواء كانت مؤسسات أولية أم مؤسسات ثانوية.

6. تتعاون المهنة مع غيرها من المهن الأخرى للوصول إلى المستويات الاجتماعية المنشودة.
7. تعتمد على استثمار الموارد المتاحة في العميل أو البيئة المحيطة لتحقيق أهدافها.
8. لابد وأن تتفق فلسفة وأساليب المهنة مع قيم وعادات وتقاليد وأيديولوجية المجتمع الذي تعمل فيه. (عثمان ،2014: 88-89).

ج – فلسفة الخدمة الاجتماعية:

يستخدم الباحثون في مجال الخدمة الاجتماعية عادة عبارة «فلسفة الخدمة الاجتماعية». وفي معرض الحديث عن فلسفة الخدمة الاجتماعية يجري تقديم تعريفات للفلسفة. وهي تعريفات تتراوح بين الصياغة العامة وبين الصياغة الدقيقة. والسؤال الذي يُطرح هو: ما الذي يدفع هؤلاء الباحثين المتخصصين في الخدمة الاجتماعية إلى استخدام لفظ «الفلسفة»؟ وما الذي يقصدونه بعبارة «فلسفة الخدمة الاجتماعية»؟ وما هي أبعاد هذا الاستخدام؟

في مجال الخدمة الاجتماعية، يستخدم باحثون (خاطر، 2004؛ صالح، 2004؛ علي، 2003) لفظ «الفلسفة» (في عبارة «الخدمة الاجتماعية»)، بمعنى مجموع القيم والمبادئ والمعتقدات التي توجه الاختصاصي الاجتماعي.

ذلك أن دراسة (خاطر، 2004) قد عرّفت الفلسفة على النحو التالي: «نقصد بالفلسفة المركب العام الذي يحتوي على الأبعاد الإيديولوجية، والمعتقدات القائمة على الإيمان بالإنسان، والمعطيات العلمية والمهنية، وكيف يؤثر هذا المركب بصفة عامة في تحديد مسار الممارسة «(خاطر، 2004: 26). كما تشير الدراسة بأن الفلسفة هي «مركب من المعتقدات والاتجاهات والمثاليات والروحانيات والأهداف والقيم والمعايير والمبادئ الأخلاقية». وهذا المركّب الفلسفي يُعتبر جزءا لا يتجزأ من تكوين الاختصاصي الاجتماعي، حيث «تُعتبر الفلسفة جزءا جوهريا من الثقافة الفرعية للمهنة والتي يجب أن تتم تنشئة الدارسين أو المبتدئين على فهمها واستيعابها، وهكذا تصبح الفلسفة جزءا من المهنة نفسها يعتنقها الممارس ويعمل بمقتضاها. إن فلسفة الخدمة الاجتماعية تعتبر فلسفة أخلاقية واجتماعية بالإضافة إلى أنها تتضمن العديد من القيم والأحكام القيمية» (خاطر، 2004: 28).

أما دراسة (صالح، 2004) فقد عرفت فلسفة الخدمة الاجتماعية كما يلي: «يعني مصطلح فلسفة البحث في أصول الشيء والتعرف على أسباب وجوده ونشأته...وتعتبر فلسفة الخدمة الاجتماعية في مفهومها فلسفة اجتماعية أخلاقية امتدت جذورها إلى الأديان السماوية والنزعة

الإنسانية» (صالح، 2004: 37).

كما عرفت دراسة (علي، 2003) الفلسفة على النحو التالي: «الفلسفة في مفهومها العام هي عبارة عن موقف أو تصور شامل تجاه الكون والمجتمع والإنسان، كما أنها تصور منطقي للعلاقات التي تربط كل ظاهرة بالأخرى استنادا إلى منهج خاص»(علي، 2003: 62).

وبصفة عامة يقصد بالفلسفة في إطار مهنة «الخدمة الاجتماعية» مجموعة الحقائق التي يؤمن بها العاملون بمهنة الخدمة الاجتماعية (الاختصاصيون الاجتماعيون) والذين يعملون ويتفاعلون ويمارسون مهنتهم مع الوحدات الإنسانية (الفرد، الجماعة، المجتمع) في إطارها.

وجدير بالذكر أنه كلما تطورت مهنة الخدمة الاجتماعية كلما تبلورت فلسفتها بشكل أعمق وتطورت لكي تساير التغيرات التي تحدث في مجال عملها والتطوير المتلاحق لطرقها وأساليبها العلمية والفنية (عثمان،2014: 27).

وترى (Konopka،1987) أن مهنة الخدمة الاجتماعية استطاعت أن تكون لنفسها فلسفة تتضمن القيم والأهداف الخاصة بها مع نظرة خاصة إلى الإنسان والمجتمع بالإضافة إلى توفير إطار توجيهي لطرقها وأساليب ممارستها المهنية، كما ترى أن فلسفة الخدمة الاجتماعية تتفق إلى حد كبير مع الفلسفة الأساسية لكل المهن التي تهتم بالعلاقات انسانية.

وقد أوضحت (Konopka) مجموعة من الحقائق التي تمثل الإطار الفلسفي لمهنة الخدمة الاجتماعية وهى:

1. الاستفادة من الفروض الفردية بشكل يؤدي إلى التكامل.
2. الحقائق الاجتماعية نسبية قد تختلف باختلاف الزمان والمكان.
3. للفرد أهمية في تقدم المجموع لأنه القاعدة والمنطلق.
4. ضرورة التخطيط لتقدم المجتمع.
5. ضرورة ممارسة الديمقراطية في المعاملات.

كما ترى أن للخدمة الاجتماعية قيما خاصة تتمثل في:

أ- الاعتراف بكرامة الفرد وحقه في تقرير مصيره.

ب- الاعتماد المتبادل بين الفرد والمجتمع.

ج- الفرد وحدة دينامية يسعى إلى إشباع حاجاته إما بمفرده أو عن طريق جماعات أو المجتمع (Konopka، 1987:24- 26).

ويرى (حسانين، 2006) أن الإطار الفلسفي للخدمة الاجتماعية يعترف ويؤمن بالقضايا التالية:

1. أنه لا توجد حقائق مجردة بل حقائق نسبية.
2. إن الفرد وحدة الجماعة، وإن الجماعة وحدة المجتمع، وإن المجتمع لا بد وأن يتغير لصالح أفراده؛ لأنه يشبع بعض احتياجات الفرد التي لا يستطيع أن يشبعها بمجهوده الفردي أو عن طريق الجماعات التي ينتمي إليها.
3. إن جماعية القيادة وتوافق الوسائل مع الأهداف في إحداث التغيير المبني على التخطيط العلمي السليم من أهم الضمانات التي تساعد المواطنين على تحقيق أهدافهم المنشودة من التغيير.
4. إن الحكومة يجب أن تتدخل لتعمل على مواجهة المشكلات الاجتماعية بكل طاقتها وإمكانياتها حتى يكون لبرنامج الرعاية الاجتماعية آثارها وفعاليتها كحق مكتسب للمواطنين.
5. أن لا يفرق المجتمع في توفير الرفاهية لأعضائه بين فئة اجتماعية وأخرى أو يميز بين جماعة وأخرى لأي سبب غير درجة الاحتياج للخدمة، وأن تكون هناك مساواة كاملة في تكافؤ الفرص للأفراد وتقديم المساعدة لهم بغض النظر عن الدين أو اللون أو الجنسية أو القومية.
6. إن القيم تنضم المجتمع الإنساني، ومن ثم وجب تفهمها تفهما كاملا لأن ذلك يقود إلى تفهم أفضل للأفراد والقوى الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع والتي تتحكم في أسلوب تغييره واتجاهات هذا التغيير وسرعته ومداه، وعلى كل مواطن عدم خرق قيم المجتمع وقوانينه.

إن الفرد وحدة بيولوجية اجتماعية دينامية أي لديه القدرة على التغيير وقادر على مساعدة نفسه ذاتيا؛ ولذلك يجب العمل على مساعدته لتنمية قدراته وتحقيق أكبر قدر ممكن من الاعتماد على نفسه، وتعويده الاعتماد المتبادل بين الناس في الوقت نفسه، وتقبله لمواقف القيادة والتبعية فالتعاون والتضامن من أهم أسس النجاح في تحقيق الأهداف.

7. إن الفروق الفردية أمر حتمي في الحياة البشرية، ولابد من احترامها على أساس أن الفرد فرد من المجتمع وأن ما يتميز به من فروق لا يضر بالمجتمع ولا يتناقض مع قيمه؛

ولذلك يجب الاهتمام بالفرد بجانب المجموع، وكذلك الاهتمام بكرامته والاعتراف بأهميته وفائدته في الإسهام في تقدم المجتمع حتى يمكن التوصل إلى الوحدة والتكامل في المجتمع بواسطة الاستفادة من الفروق الفردية، والفرد مسؤول مسؤولية اجتماعية نحو نفسه ونحو أسرته ونحو مجتمعه.

8. تؤمن الخدمة الاجتماعية أن مساعدة الأفراد على علاج المشكلات الاجتماعية التي يتعرضون لها وتغيير الظروف المحيطة بهم بما يساعدهم على تحقيق أفضل تكيف ممكن.
9. إن الآلام والمتاعب التي يعاني منها الفرد ليس لها أي مغزى يبرر استمرار تعرض الفرد لها، ومن ثم يجب مساعدة الفرد على التخلص مما يعاني من آلام ومتاعب.
10. إن الفقراء والمرضى والعجزة ليسوا عناصر ضعيفة وعلى المجتمع أن يتركها لتفنى، بل من مسؤولية المجتمع أن يساعد هؤلاء على أن يحيوا حياة إنسانية كريمة.
11. إن الديمقراطية لا تتوافر عن طريق التعليم فحسب، بل إنها أسلوب يجب أن يمارسه الأفراد والجماعات والمجتمعات، والممارسة أنسب أساليب التعليم، ويجب أن يكون للفرد والجماعة والمجتمع حق اتخاذ قراره وتحديد أهدافه بمعرفته ورضائه. (حسانين، 2006: 43).

وما يمكن استنتاجه من خلال هذه التعريفات أن «فلسفة الخدمة الاجتماعية» تعني مجموعة القيم والمبادئ والمعايير والمعتقدات التي توجه عمل الاختصاصي الاجتماعي مشكّلة بذلك أسس الخدمة الاجتماعية ذاتها. وهذه الأسس إنسانية وإيثيقية ومدنية وإبستيمولوجية.

منهجية البحث

لقد اعتمد الباحثان على المنهج التحليلي-التركيبي الذي يقضي، في مرحلة أولى، بتفريع المشكلة الرئيسية إلى مشكلات فرعية ومحاولة فهم كل واحدة منها على حدة للخروج، في مرحلة ثانية عن طريق التركيب بنتائج عامة.

ولذلك فقد طرح الباحثان في البداية، وبطريقة تحليلية، مسألة أبعاد استخدام المتخصصين في مجال الخدمة الاجتماعية لعبارة «فلسفة الخدمة الاجتماعية» وأبعاد ذلك الاستخدام. كما تناولا بالتحليل المنظورات الفلسفية الممكنة للخدمة الاجتماعية، فبينا أن التفكير الفلسفي في الخدمة الاجتماعية هو التفكير الذي يكون مقصده التأسيس. والتأسيس بحث في الأسس النظرية التي تقوم عليها الخدمة الاجتماعية وبحث في شروط إمكان وجودها. وهذه الأسس الفلسفية هي

أسس إنسانية وإيثيقية ومدنية وإبستيمولوجية. ثم انتهى الباحثان، بطريقة تأليفية، إلى استخلاص أوجه استفادة الخدمة الاجتماعية من الفلسفة.

1 - التأسيس الفلسفي للخدمة الاجتماعية

لفظ "التأسيس" مشتق من فعل أسس، وفيه معنى إقامة الشيء على قاعدة صلبة أي على أساس قوي. والأساس هو ما يوجد تحت ظاهر الأشياء، وهو بالتالي قوامها. فأساس البيت هو قاعدته وأساس الشجرة جذورها. وهذا المعنى عبر عنه (Lalande، 1991: 364) عندما اعتبر أن الأساس هو " ما يقوم عليه نظام معرفي أو مجموعة من المعارف".

والتأسيس أيضا بحث في شروط إمكان الشيء أي ما يجعل منه أمرا ممكنا. ومثال ذلك أن الهندسة الإقليدية تنبني بتمامها على مجموعة من المبادئ الواضحة بذاتها والتي لا تحتاج إلى البرهنة عليها، وإنما هي أسس كل استدلال رياضي، بمعنى أنها شروط إمكانه. ومن هذه المبادئ التعريفات (تعريف النقطة والخط والمثلث...)، والبديهيات (كالقول إن الكل أكبر من الجزء)، والأوليات (كالقول إنه من نقطة خارج خط لا يمكن رسم سوى خط واحد مواز للخط الأول). كما أن الفيلسوف الألماني (Emmanuel Kant)[1] قد انشغل، خلال القرن الثامن عشر، بسؤال تأسيس المعرفة العلمية فتساءل- مثلا- ما هي شروط إمكان الفيزياء كعلم نظري؟ بمعنى ما الذي يجعل من الفيزياء أمرا ممكنا كعلم؟ وأجاب بأن ما يجعل الفيزياء علما كونها تحقق شرط التأليف بين ما هو عقلي وما هو تجريبي، بين ما هو قبلي وما هو بعدي، أو بين مفهوم وحدس.

ومثلما انشغل إقليدس بتأسيس العلم الرياضي وانشغل كانت، من بين ما انشغل به، بتأسيس العلم الفيزيائي، فإن الباحثين يعتبران أنه من الضروري السؤال اليوم: ما الذي يجعل من الخدمة الاجتماعية أمرا ممكنا؟ ما هي شروط إمكان الخدمة الاجتماعية؟

يمكن القول إذن إن مسألة التأسيس مرتبطة بقضية العلاقة بين ما هو نظري وما هو عملي، فالعمل، أيا كان بما فيه العمل أو الخدمة الاجتماعية، هو فعل. وكل فعل يفقد معناه إن هو كان مجردا من قيمة ومعنى وغاية ومبدأ نظري معرفي، هي جميعها شروط إمكان ذلك الفعل.

يرى الباحثان أن الخدمة الاجتماعية فعل يحدث في ضوء قيمة أو مجموعة قيم كالخير والمسؤولية وواجب المساعدة، وهو بالتالي فعل معياري ذو غايات، وهو قابل لأن يوصف بأنه فعل خيّر أو مسؤول (أي أنه فعل ذو أساس إيثيقي). وقبل الفعل على الاختصاصي الاجتماعي أن يحدد الغاية أو الغايات من وراء فعله والتي قوامها معاملة الإنسان كغاية لا كمجرد وسيلة إذا ما

استخدمنا العبارات الكانتية (أي أنه فعل ذو أساس إنسانوي). وهو فعل ذو معنى بالقياس إلى ما يهدف إليه من تكييف أفعال المستفيد مع المجتمع، على نحو يمكنه من أداء وظائفه داخل ذلك المجتمع على نحو يحقق التضامن والتعايش (فعل له أساس مدني). والخدمة الاجتماعية أيضا فعل موجه بمبادئ نظرية معرفية تحدد شروطه الإبستيمولوجية والعلمية ومنزلته بالقياس إلى العلوم الاجتماعية (فعل له أساس إبستيمولوجي)

2 - الإجابة عن التساؤل الفرعي الأول: ما الأساس الإنساني للخدمة الاجتماعية؟

يصعب العثور على تعريف للخدمة الاجتماعية دون ربطها «بالإنسان». حيث نبهت دراسة (خاطر، 2004) مثلا إلى أنه قد « تم تعريف الخدمة الاجتماعية بأنها طريقة اجتماعية منظمة لمساعدة الناس للوقاية والعلاج من المشكلات الاجتماعية والقيام بوظائفهم الاجتماعية على أحسن وجه ممكن». وحسب دراسة (صالح، 2004)، « تهدف الخدمة الاجتماعية إلى رفاهية الإنسان وخلق المواطن الصالح القادر على العطاء ودفع عجلة الإنتاج، فتقوم بمساعدته على مواجهة مشكلاته التي تعوق أداء دوره الاجتماعي بل تتعدى ذلك إلى دورها الوقائي والتنموي».

ومن ثم فإن الخدمة الاجتماعية طريقة لمساعدة الإنسان، فردا كان أو كعضو في جماعة أو كعضو في مجتمع، وهي بالتالي تتنزل، بالمفهوم الفلسفي، ضمن إطار النزعة الإنسانية (أو الفلسفة الإنسانوية).

وقد عرّفت دراسة (سيث، 2011) النزعة الإنسانية (Humanism) على النحو التالي: "تعني النزعة الإنسانية، من بين ما تعني، الجزم أو الشعور بأن جميع بني البشر يشتركون في صفة أساسية، وبأن لهم، بالتالي حقوقا متساوية في الكرامة والاحترام".

والحق أن النزعة الإنسانية كفلسفة قد ظهرت في عصر النهضة الأوروبية كي تبلغ ذروتها مع عصر الأنوار.

فخلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر دخلت أوروبا عصر النهضة. وبداية من سنة 1470 كانت البلدان الأوروبية بصدد التحول إلى عالم جديد أساسه التقدم في المجالات العلمية والفنية والأدبية بعد عقود من الحروب والأمراض. خلال تلك الفترة ظهرت في إيطاليا حركة تجديد، وسرعان ما توسعت إلى جل بلدان أوروبا. وقد عُرفت هذه الحركة باسم النزعة الإنسانية (Humanism). ولفظ (Humanism) مشتق في اللاتينية من لفظ (Humanitas) الذي يشتق

بدوره من لفظ (homo) والذي يعني الإنسان. حيث كانت النزعة الإنسانية تعني، حركة فكرية عبر عنها إنسانيو عصر النهضة ... وسمتها السعي الدؤوب إلى الرفع من شأن كرامة الفكر البشري» (Lalande ، 1991: 421). إنها حركة فكرية وأدبية وثقافية اجتاحت أوروبا محاولة تجاوز دغمائية فكر القرون الوسطى ومنفتحة على النصوص اليونانية واللاتينية القديمة. ذلك أن أول الإنسانويين كانوا ممن يعلّمون تلك النصوص الفلسفية والأدبية القديمة حاملين تأويلا جديدا لها. وقد كان إنسانيو عصر النهضة يعتقدون في الطبيعة الخيرة للإنسان وبكونه كائن الحرية، كما كانوا يعتبرون التربية أساس تحقيق حرية الإنسان وتقدمه واستقلاليته. وهم مؤمنون بإمكانية تقدم الإنسان، ومتفائلون بمستقبله وقدرته على المعرفة وعلى تفسير الطبيعة والسيطرة عليها. وأهم المفكرين الذين عبروا عن هذه الحركة الثقافية المجددة هناك (Thomas More)[2]، و (Desiderius Erasmus)[3]، و (Andreas Vesalius)[4]، و (Leonardo Da Vinci)[5].

وقد عرفت هذه النزعة الفلسفية أوج ازدهارها لاحقا مع عصر التنوير الأوروبي في تأكيده على قيمة العقل ومحوريته. ومن أبرز رواد عصر التنوير الفيلسوف الألماني (Emmanuel Kant) ، والذي عرّف التنوير بأنه المرحلة التي تبلغ فيها البشرية حالة «النضج». ويتجلى النضج من خلال الوعي بكرامة الإنسان وحريته، كما يتجلى من خلال الإقرار بقيمة العقل البشري والسعي إلى استخدامه، حيث يقول (Emmanuel Kant): «لتكن لك الجرأة على استخدام عقلك الخاص». وقد نهض عصر التنوير على الإيمان بحرية الإنسان وكرامته وإمكانية سيادته على ذاته وعلى الطبيعة. وقد عبّر عن هذا الحراك الفكري كثير من الفلاسفة مثل (Denis Diderot)[6]، و(Voltaire)[7] ، و (Jean Jacques Rousseau)[8] و (Montesquieu)[9] ، و(John Locke)[10] ، و (David Hume)[11].

حاصل ذلك إذن أن ما يميز النزعة الإنسانية الدفاع عن كرامة الإنسان وحقه في العدالة والإيمان بحريته وقدرته على تحقيق استقلاليته وسيادته على نفسه. وهي قيم ومبادئ حددت بشكل كبير مسار تطور كثير من المعارف والممارسات ومنها الخدمة الاجتماعية.

وإن نحن عدنا إلى تطور الخدمة الاجتماعية تاريخيا نجد أنها تأثرت بشكل كبير بهذه الفلسفة الإنسانوية وكردة فعل على بؤس الإنسانية كنتيجة من نتائج الرأسمالية المتوحشة. وهو ما نبهت إليه مثلا دراسة (خاطر، 2004: 62) حيث "ظهرت الخدمة الاجتماعية الغربية عندما كانت النظريات السائدة هي البقاء للأصلح". وتتجلى نظريات البقاء للأصلح في فكر الرأسمالية التي مالت إلى

فئات اجتماعية دون أخرى، ومعتبرة الإنسان مجرد أداة إنتاج، ناشرة بذلك "جو البؤس والشقاء والإجحاف بحق الإنسان في حياة كريمة"، فكانت نشأة الخدمة الاجتماعية بمعناها الحديث ردة فعل على الرأسمالية المتوحشة، واصطفافا إلى جانب الفكر الإنسانوي، إذ "كانت الخدمة الاجتماعية منذ بدايتها حركة إنسانية تدعو إلى احترام الإنسان عندما كان الجو السائد حول هذا الإنسان يحدده في إطار ضيق لا يخرج عن كونه أداة من أدوات الإنتاج" (خاطر، 2004: 62).

ويتجلى حضور النزعة الإنسانية بشكل واضح من خلال جل الكتابات المتعلقة بالخدمة الاجتماعية والتي تؤكد على ضرورة تقيد الاختصاصي الاجتماعي ببعض القيم ومنها:" احترام كرامة العميل وقيمته كإنسان"، و"احترام حق تقرير المصير" (خاطر،2004: 34). أضف إلى ذلك الإيمان بأن " الإنسان الفرد هو أسمى ما في الوجود وهو محور الاهتمام في المجتمع، وأن المجتمع يسعى لإسعاده طالما التزم بقيم المجتمع ومعاييره"(علي، 2003: 63). ومن ثم فإن من ركائز الخدمة الاجتماعية «الإيمان بقيمة الفرد وكرامته»، و«الإيمان بحق الفرد في ممارسة حريته في حدود القيم المجتمعية» (صالح، 2004: 38). وجلي أن هذه القيم المتعلقة باحترام كرامة الإنسان والإيمان بحريته واستقلاليته هي قيم قامت عليها النزعة الإنسانية سواء في عصر النهضة الأوروبية أو في عصر التنوير.

2 - الإجابة عن التساؤل الفرعي الثاني: ما الأساس الإيثيقي للخدمة الاجتماعية؟

لا شك أن فضاء الخدمة الاجتماعية هو كغيره من المجالات محكوم بضوابط وتوجيهات وقواعد تشكل جميعها مرجعيته القانونية. ولكن هذه المرجعية القانونية لا تخلو من مفاهيم وقيم إيثيقية ذات دلالة فلسفية. حيث يُعتبر البعد الفلسفي الإيثيقي من أكثر الأبعاد تجليا في مجال الخدمة الاجتماعية. ولا شك أن مبحث الأخلاق، عامة، هو مبحث فلسفي بالأساس. ذلك أن المباحث الفلسفية الكبرى هي الوجود والمعرفة والقيم، وأهم القيم الحق والجمال والخير. وقيمة الخير موضوع أساسي لفرع من فروع الفلسفة هو فلسفة الأخلاق أو «الأكسيولوجيا»(Axiology). وعبارة أكسيولوجيا مشتقة من الأصل اليوناني (αξιαλογεα)، وهي عبارة مركبة من لفظين هما: ((αξια، وتعني قيمة،

و (λογο) ، وتعني هنا العلم. فالأكسيولوجيا إذن هي علم القيم.

وقد انشغل الفلاسفة تاريخيا بقيمة الخير من جهة معناه وأسسه وعلاقته بمفاهيم أخلاقية

أخرى مثل مفهوم السعادة (عبدة،1999: 55)، ومفهوم الواجب (عبدة،1999: 61). ومن بين الفلسفات التي ربطت الخير بالواجب فلسفة الأخلاق عند (Emmanuel Kant). فالسؤال الأساسي الذي يطرحه هذا الفيلسوف متعلق بمسألة الواجب. إنه سؤال: "ماذا يجب عليّ أن أفعل؟". بمعنى ما هي معايير الفعل الخلقي من زاوية الواجب؟ وقد أجاب (Emmanuel Kant) عن هذا السؤال معتبرا أن الفعل الأخلاقي، أو الفعل الخيّر، هو الذي يكون بدافع احترام الواجب وليس بدافع الحصول على منفعة (عبدة،1999: 62).

ويمكن القول إن الخدمة الاجتماعية تعبّر، عموما، عن فعل أخلاقي مقصده الخير، حيث "تم وصف الاختصاصي الاجتماعي على أنه شخص فاعل للخير، أو من يقوم على تقديم خدمات نافعة، أو أنه عامل مساعد لدعم الأخلاقيات في المجتمع" (خاطر، 2004: 27).

ويرى الباحثان أنه ينبغي التمييز، من الزاوية الفلسفية، بين "الأخلاق" (Morality) والإيثيقا" (Ethics). فالأخلاق مرتبطة بقواعد عامة وكونية وملزمة: كعدم القتل أو عدم السرقة أو عدم الكذب...إلخ. وفي مجال الأخلاق فإن الفعل الخلقي هو الذي يذعن لهذه القواعد العامة. أما الإيثيقا فهي مرتبطة بمجال محدد ووضعية خصوصية، ويكون من الضروري البحث فيها عن أفضل السبل للفعل والتصرف في ضوء التفكير في الهدف الذي يرمي إلى تحقيقه الفعل أو التصرف، وفي السبل المثلى لتحقيق ذلك الهدف. في هذا السياق يمكن الحديث عن "إيثيقا رياضية" و"إيثيقا طبية"...وأيضا "إيثيقا الخدمة الاجتماعية". وهو ما يعني أن مفهوم الأخلاق أكثر عمومية من مفهوم الإيثيقا.

وفضلا عن ذلك يؤكد الباحثان أن ما يميز إيثيقا الخدمة الاجتماعية عن الأخلاق الفلسفية النظرية أنها إيثيقا عملية وتطبيقية (Applied Ethics)، بمعنى أنها متعلقة بالمجال المهني ولا تهتم كثيرا بالتأسيس النظري للقيم الأخلاقية، على عكس ما نجده في فلسفة الأخلاق من بحث في المعايير المطلقة للفعل الخلقي وغاياته وعلاقته بالعقل واللذة والطبيعة البشرية.

وتتجلى هذه الإيثيقا التطبيقية، في مجال الخدمة الاجتماعية عادة، من خلال العبارات المستخدمة في هذا التخصص مثل "أخلاقيات المهنة"، و"مدونة السلوك"، و"الميثاق الأخلاقي" الذي يضبط ممارسة الاختصاصي الاجتماعي وفعله على أساس مجموعة من القيم. وتُسمى هذه الإيثيقا التطبيقية في المجال المهني "بالديونتولوجيا" (Deontology) (Clark، 2000).

ولفظ "ديونتولوجيا" مشتق من عبارة يونانية مركبة من لفظين :(δεον) ويعني الالزام أو

الواجب، و(λογία) ويعني، في هذا السياق، العلم. فالديونتولوجيا إذن هي علم الواجبات المهنية، أو هي مدونة سلوك في المجال المهني. (Hugman، 2014: 34)

ويرى الباحثان أن الاعتقاد بأن الممارسة في مجال الخدمة الاجتماعية هي ممارسة مرتبطة بالنجاعة وتحقيق النتائج الملموسة ولا علاقة لها بالقيم وبالإيثيقا، هو اعتقاد خاطئ، لأن هذا المجال تحكمه ضوابط وقيم، وهو يتنزل، بالمعنى الفلسفي، ضمن مفهوم "الغيرية" (Alterity). ويشير مفهوم الغيرية عموما إلى العلاقة بين الذات والآخر، ويشير في مجال الخدمة الاجتماعية، إلى العلاقة بين الاختصاصي الاجتماعي والمستفيد (أو العميل). حيث يمكن القول إن الممارسة في مجال الخدمة الاجتماعية هي ممارسة تحكمها ضوابط وواجبات إيثيقية، كالتنبيه مثلا إلى أن الأشخاص الذين يشكون من إعاقة عضوية أو ذهنية أو إعاقة مُركّبة لهم الحقوق التي يتمتع بها الإنسان غير المعاق نفسها، أو التي يتمتع بها الإنسان عموما من حيث هو إنسان. ومن ثم "يعمل الاختصاصيون ضمن مجال جوهره الإنساني، ولهم أعمال تُطرح فيها مسألة الإيثيقا" (Benoit، 2013: 7).

ولا تنفصل الممارسة في مجال الخدمة الاجتماعية عن طرح مسألة العلاقة بين الاختصاصي الاجتماعي والمستفيد، والعلاقة بين المستفيد ومجتمعه: إنها ممارسة قائمة على مفهوم "العلاقة" مع الآخر. وليست الإيثيقا سوى الحياة الجيدة مع الآخر، صلب علاقة توازن مع الذات ومع الغير. (Benoit، 2013: 9). ولذلك كانت مهنة الاختصاصي الاجتماعي، كغيرها من المهن الأخرى كالطب والتمريض والإعلام والهندسة وغيرها من المهن، في حاجة إلى ديونتولوجيا أو ميثاق أخلاقي أو مدونة سلوك تكون بمثابة الدليل الذي يضبط تدخلاته صلب فضاء يتدخل فيه عديد الفاعلين: الاختصاصي الاجتماعي، مراكز التكوين، المستفيدون (العملاء)، المشغلون، الدولة... إلخ. ومن ثم يحدد هذا الميثاق الضوابط الأخلاقية لفعل الاختصاصي الاجتماعي ومسؤوليته الأخلاقية تجاه المستفيدين وتجاه زملاء المهنة، وتجاه المهنة ذاتها والمؤسسة والمجتمع.

وليس المجال هنا لاستعراض كل المواثيق الأخلاقية المتعلقة بمهنة الاختصاصي الاجتماعي فهي متعددة بتعدد المجتمعات، وقد صدرت عن جمعيات مختلفة كالجمعية القومية للاختصاصيين الاجتماعيين (NASW) في الولايات المتحدة الامريكية، "إضافة إلى دساتير أخلاقية صدرت عن جمعيات عالمية للخدمة الاجتماعية، كالجمعية البريطانية للاختصاصيين الاجتماعيين (BASW)، والجمعية الاسترالية للاختصاصيين الاجتماعيين (AASW)،

والجمعية الكندية للاختصاصيين الاجتماعيين (CASW)، والجمعية النيوزلندية للاختصاصيين الاجتماعيين (ANZASW)، والجمعية السنغافورية للاختصاصيين الاجتماعيين (SASW)، والجمعية الكورية للاختصاصيين الاجتماعيين (KASW)» (البريثن، 2008: 301-302)، والجمعية المصرية للاختصاصيين الاجتماعيين، وجمعية الاخصائيين الاجتماعيين العمانية وغيرها. وعلى الرغم من تنوع هذه المواثيق فإن فيها مضامين مشتركة، مثل التأكيد على مفاهيم المسؤولية، والاستقلالية، والاحترام، والواجب.

فلو أخذنا مثلا الميثاق الأخلاقي الصادر عن الجمعية القومية للاختصاصيين الاجتماعيين (NASW)، لوجدنا أنه ينبه، في ديباجته، إلى أن «إحدى السمات المميزة والصفات الرسمية لمهنة الخدمة الاجتماعية هي الاهتمام بتأسيس مستويات أخلاقية لترشيد سلوك الممارسين المهنيين، وتنصب تلك المستويات على القضايا الأخلاقية، وتزود الاختصاصيين الاجتماعيين بإرشادات لتحديد الممكن قبوله أخلاقيا وسلوكيا»(السنهوري، 2006: 282). مكون من ستة أبواب أساسية:

- أحدها متعلق بسلوك وتصرف للاختصاصي الاجتماعي كاختصاصي اجتماعي (الحفاظ على القيم العليا للسلوك الشخصي، كعدم الانخراط في أفعال لا أخلاقية متعلقة بالتمييز والتفرقة على أساس السلالة أو العرق أو الوطن الأصلي أو اللون أو الجنس أو الإعاقة الجسمية، وتجنب الخداع والاحتيال وعدم الأمانة والتضليل...). بحيث أن هذا الباب الأول متعلق بالمسؤولية الأخلاقية للاختصاصي الاجتماعي تجاه نفسه.
- أما الأبواب الخمسة الأخرى فهي متمحورة جميعها حول مفهوم المسؤولية الأخلاقية للاختصاصي الاجتماعية تجاه الغير وذلك في مختلف المظاهر التالية:

أ- المسؤولية الأخلاقية للاختصاصي الاجتماعي تجاه المستفيدين أو العملاء (مثل تعزيز رفاهية العملاء، وواجب إبداء النصح لهم، والإقرار بحقهم في تقرير مصيرهم، والحرص على عدم تضارب المصالح، واحترام حق المستفيدين في السرية والخصوصية، وعدم الارتباط بعلاقات جسدية بهم أو بأقاربهم).

ب- المسؤولية الأخلاقية للاختصاصي الاجتماعي تجاه الزملاء (مثل سلوك نهج الاحترام والتضامن والاستشارة وتجنب النقد السلبي للزملاء...).

ج- المسؤولية الأخلاقية للاختصاصي الاجتماعي تجاه المؤسسة التي يعمل بها (وأبرزها

متعلق بالإشراف والاستشارة والتعليم والتدريب والتعهدات لأصحاب العمل..).

د- المسؤولية الأخلاقية للاختصاصي الاجتماعي تجاه مهنة الخدمة الاجتماعية (من خلال الحرص على تعزيز كمال المهنة وتحسينها، وتنمية المعرفة وتطويرها من خلال التقويم والبحث).

هـ- المسؤولية الأخلاقية للاختصاصي الاجتماعي تجاه المجتمع (من خلال الحرص على تعزيز الرعاية الاجتماعية، والحرص على تدعيم الظروف التي تشجع على احترام الاختلافات الثقافية والاجتماعية، والعمل على منع التمييز والتفرقة ضد أي شخص أو جماعة أو عرق أو لون ...) (السنهوري، 2006: 282).

أما في المجتمعات العربية فإن المواثيق الأخلاقية التي تنظم عمل الاختصاصي الاجتماعي تختلف في مضامينها باختلاف الدول وتشريعاتها، ولكنها تتفق في ضرورة التأطير الأخلاقي للمهنة وفي التأكيد على مفاهيم الكرامة الإنسانية، وتعزيز حق تقرير المصير للمستفيد، ومسؤولية الاختصاصي الاجتماعي أخلاقيا. فلو أخذنا مثلا (مشروع) الميثاق الأخلاقي للاختصاصي الاجتماعي في سلطنة عمان، والصادر عن جمعية الاجتماعيين العمانية سنة 2015، لوجدنا أن هذا الميثاق قد وُضع لتحقيق ما يلي:

«أ- الكرامة الإنسانية.

ب- العدالة الاجتماعية.

ج- النزاهة والمسؤولية.

د- وحدة المجتمع.

ه- الكفاءة في تقديم الخدمات الاجتماعية.

و- خدمة الإنسانية.

ز- المحافظة على العلاقات الاجتماعية»(جمعية الاجتماعيين العمانية، 2015: 11).

ويعطي الميثاق الأخلاقي للاختصاصي الاجتماعي في سلطنة عمان منزلة كبيرة لفكرة المسؤولية الأخلاقية للاختصاصي الاجتماعي تجاه نفسه وتجاه غيره. حيث يضمن الميثاق الأخلاقي عديد المسؤوليات المهنية (مثل التحلي بالأخلاق الحميدة، وتقديم الخدمات للمستفيدين بعدالة ومهنية بعيدا عن أي شكل من أشكال التمييز...).

- كما يشير الميثاق إلى أوجه التزام الاختصاصي الاجتماعي تجاه الغير، أي تجاه مهنة

الخدمة الاجتماعية أولا (كالحفاظ على قيم المهنة ومعارفها ومبادئها والدفاع عنها...).

- ومسؤولية الاختصاصي الاجتماعي تجاه المستفيد ثانيا (كتقديم مصلحة المستفيد، والالتزام بمبدأ سرية المعلومات التي يحصل عليها، وتعزيز حق تقرير المصير للمستفيدين، وفهم ومراعاة ثقافة المجتمع، وتجنب أي شكل من أشكال الاتصال المخالفة للدين والعادات والتقاليد وثقافة المجتمع...).
- ومسؤولية الاختصاصي الاجتماعي تجاه زملاء المهنة والمهن الأخرى (مثل احترام أدائهم، واحترام اختلاف الآراء، والمحافظة على سرية المعلومات المشتركة، وتبادل الخبرات والمعلومات، وطلب النصح والمشورة...).
- ومسؤولية الاختصاصي الاجتماعي تجاه المؤسسة التي يعمل بها (مثل التقيد بقوانينها، والسعي إلى تطوير سياسات العمل الوظيفي بالمؤسسة ...).
- ومسؤولية الاختصاصي الاجتماعي تجاه البحث العلمي (مثل اتباع منهجية البحث العلمي، وأخذ الموافقات اللازمة من الجهات ذات العلاقة قبل إجراء أي دراسة أو بحث...).
- ومسؤولية الاختصاصي الاجتماعي تجاه المجتمع (مثل السعي إلى تعزيز برامج الرعاية والتنمية الاجتماعية، والتعاون الإيجابي مع مؤسسات المجتمع، ومساندة الفئات التي تحتاج إلى الخدمات الاجتماعية الضرورية...). (جمعية الاجتماعيين العمانية، 2015: 12-19).

كما تجدر الاشارة في الوقت نفسه إلى الميثاق الأخلاقي للاختصاصيين الاجتماعيين بدولة الكويت الذي أصبح من الضروري الالتزام به ذاتياً في جميع مناحي عملهم وسائر ممارساتهم المهنية، حيث يؤدي الالتزام به إلى زيادة في كفاءة العمل وارتقاء في أسلوب الإنجاز ونجاح في تحقيق الأهداف الأمر الذي ينعكس إيجابياً على الأفراد والمجتمع ككل، وبناء على ذلك يشير الميثاق الاخلاقي للاختصاصيين الاجتماعيين بدولة الكويت إلى:

أولا: السلوك الشخصي لممارسي مهنة العمل الاجتماعي مثل (التحرر من جميع أشكال التعصب الديني أو الطائفي أو السياسي أو الطبقي، أو الانحياز والبعد عن الموضوعية، مراعاة الفوارق الثقافية والمجتمعية للعملاء، الإلتزام بالصدق، البعد تماماً عن استغلال علاقته مع العملاء)

ثانيا: المسؤولية الأخلاقية تجاه العملاء (مثل تكوين علاقة مهنية متوازنة تبنى على الصدق والأمانة والاحترام المتبادل، حماية مصالح وحقوق العملاء، عدم البوح بأي أسرار كشفها العملاء، المحافظة على كرامة العميل...).

ثالثا: المسؤولية الأخلاقية تجاه زملاء المهنة (مثل الإلتزام في التعامل مع الزملاء بالاحترام والثقة المتبادلة وتقديم المعلومات والخبرات، والحرص على أداء المهام والمسؤوليات بالتعاون مع زملاء المهنة وبروح الفريق الواحد، والمحافظة على الأسرار التي يطلع عليها من الزملاء خلال علاقاتهم ومعاملاتهم المهنية، وأن يكون السلوك الإشرافي أو التوجيهي للزملاء متسماً بالوضوح والموضوعية وعدم التحيز وعلى أسس ومعايير واضحة ومحددة...).

رابعا: المسؤولية الأخلاقية تجاه المؤسسات (مثل عدم إفشاء معلومات سرية عن المؤسسات التي يعمل من خلالها إلا في إطار النظم والقوانين النافذة في الدولة، واقتصار استخدام المعلومات والبيانات المتعلقة بالمؤسسات التي يعمل من خلالها لأغراض الدراسة والبحث فقط، وبما فيه مصلحة العملاء، والإلتزام بتزويد المؤسسات التي يعمل بها الاختصاصي الاجتماعي بالمعلومات الصحيحة...).

خامسا: المسؤولية الأخلاقية تجاه المهنة والسياسات الاجتماعية (مثل تأكيد ودعم مكانة وكرامة المهنة، والحرص على تطوير المعارف العلمية والمهارات المهنية للعاملين بمهنة العمل الاجتماعي، ومتابعة المعارف المستجدة والأساليب المستحدثة بما يخدم العملاء...).

سادسا: المسؤولية الأخلاقية في إطار البحوث والدراسات مثل (أخذ الموافقة الرسمية من الأطراف المعنية بالدراسة، والتأكد من موافقة جميع المشاركين في البحث طواعية، وعن دراية ووعي بأهداف واستخدامات البحث، والعمل على توفير الحماية للمشاركين من المضايقات والمساءلات القانونية.. الخ، وضمان سرية المعلومات، وعدم استخدامها لغير أغراض البحث...).

سابعا: وأخيرا المسؤولية الأخلاقية تجاه المجتمع والتي تتمثل في (السعي وبذل الجهد لتوفير المصادر والخدمات والفرص لكل من يطلبها، والإلتزام بالسعي والمساهمة في منع جميع أنواع التمييز ضد أي شخص أو جماعة، وتشجيع المشاركة الواعية من قبل الجمهور في صياغة السياسات الاجتماعية.. واستحداث المؤسسات التي تسهم في رفع شأن المهنة بروح من التعاضد والتكامل. (رابطة الاجتماعيين الكويتية، الميثاق الأخلاقي للاختصاصيين الاجتماعيين بدولة الكويت، 2013)

وجليّ أن من أهم محاور هذه المواثيق وقيمها فكرة المسؤولية الأخلاقية. وكثيرا ما كانت هذه الفكرة موضوعا للتفكير الفلسفي بامتياز. ومفهوم «المسؤولية» (Responsibility) مشتق من الفعل اللاتيني (respondere) الذي يعني الضمان في أمر ما، وواجب الاستجابة لنداء أو سلطة. وهذا اللفظ يجد أصوله في الجذر اللاتيني (sportio)، ويعني قدرة المرء على أن يكون ضامنا لما يمكن أن يحدث مستقبلا. ومن ثم فإن "المسؤولية تتضمن معنى القدرة على مساعدة الآخرين، وهو ما يتضمن فكرتي الأخوة والتضامن» (Bouquet، 2013:44). وهذه المسؤولية هي، من الناحية الفلسفية، مزدوجة الدلالة، فهي مسؤولية المرء تجاه نفسه (بالاستجابة لنداء ضميره الأخلاقي أو عقله)، وهي أيضا مسؤوليته تجاه الغير (بالاستجابة لنداء القانون والسلطة والمجتمع).

ويمكن أن نؤصل فلسفيا فكرة المسؤولية الأخلاقية تجاه الذات وتجاه الغير، والمبادئ المتصلة بها كاحترام كرامة الإنسان وواجب المساعدة (وهي مبادئ أساسية في مجال الخدمة الاجتماعية)، من خلال ثلاث فلسفات أخلاقية كبرى: فلسفة (Emmanuel Kant)، وفلسفة (Emmanuel Levinas)[12]، وفلسفة (Paul Ricœur)[13].

ذلك أن مسألة المسؤولية الأخلاقية للإنسان تجاه نفسه، وضرورة استجابته لنداء العقل، واضحتان في فلسفة الأخلاق الكانتية التي أسست الفعل الأخلاقي على مفهوم العقل. حيث يكون الفعل الإنساني أخلاقيا عندما يستجيب للقوانين العقلية التي تملي على الإنسان القيام بفعل الخير طاعة للواجب الأخلاقي. والواجب الأخلاقي هو الذي يملي فعل الخير لغاية الخير وليس لغايات نفعية. وما يحدد أخلاقية الفعل هي طبيعة الإرادة التي تصحبه والتي ينبغي أن تكون إرادة طيبة أو «إرادة خيرة» بتعبير كانت، أي الإرادة التي تملي فعل الخير لذاته. ولذلك فإن «الإرادة الخيرة هي الشرط الذي لا غنى عنه لكي يكون الإنسان خليقا بالسعادة»(كانت، 2002 :38). وينتج عن ذلك أن الفعل الذي يكون مشروطا بمنفعة، أي يكون القصد منه مجرد تحقيق منفعة شخصية، ليس فعلا أخلاقيا حتى وإن بدا في ظاهره أنه كذلك، لأن الفعل الأخلاقي هو الذي يكون احتراما للواجب العقلي، ولأمر مطلق، يملي القيام بالخير لغاية الخير أي احتراما للمبدأ واستجابة لإرادة طيبة. ومن ثم يمكن القول إن الإنسان هو كائن عاقل، ومن جهة ما هو كذلك فهو مسؤول تجاه نفسه، بحيث ينبغي أن تكون أفعاله أخلاقية وخيّرة، أي أن تكون ترجمة لمنزلته ككائن عاقل وتعبيرا عن طاعته للعقل.

ويرى الباحثان أن من بين المبادئ الأساسية لفلسفة الأخلاق الكانطية مبدأ احترام الكرامة الإنسانية. ويتمثل، حسب كانت، في ضرورة أن يعامل الإنسان الآخرين دائما كغايات وليس كوسائل. ومعاملتهم كغايات هو احترام لكرامتهم الإنسانية. وفي ذلك مسؤولية أخلاقية للإنسان تجاه نفسه وعقله قبل أن تكون تجاه غيره بما أن الواجب الذي يطيعه واجب عقلي هو قوام منزلته الإنسانية.

أما إذا أخذنا المسؤولية الأخلاقية للإنسان تجاه الغير فإنه بالإمكان النظر فيها من خلال فلسفتي (Paul Ricœur) و (Emmanuel Levinas) اللذين أكدا على مبدأ واجب مساعدة الغير.

لقد بحث (Paul Ricœur، 1994) فيما يجب عمله للوصول إلى حياة طيبة في العلاقة بالآخرين، واعتبر أن الحل يكمن في احترام المرء لإيثيقا المسؤولية، أي لميثاق أخلاقي يحدد مسؤوليته تجاه الآخرين. وقد ذهب إلى القول إن "اللقاء بالآخر هو النواة الأخلاقية" لأي فعل لأن لقاء الإنسان بغيره من الناس امتحان لقدرته على تحمل مسؤوليته تجاههم، بل وحتى مسؤوليته تجاه آلامهم وعذاباتهم. ليس على الإنسان أن يكتفي بالتفرج على آلام الآخرين بل هو مسؤول أخلاقيا بالاستجابة لندائهم وطلبهم المساعدة. ومن ثم فإن "العذابات تمثل إلزاما، فهي تجعل الشهود عليها مسؤولين"، بحيث أن عذابات بعض الناس تُطرح في شكل واجبات بالنسبة إلى الآخرين. ذلك أن "الألم يطرح علينا واجبات"، لأن هذا "الألم يجعل الشهود عليه مسؤولين، حيث يكون الحق إلى جانب الضحية". إن حق الضحية في أن يُساعَد هو واجب الشهود: واجب مساعدة الآخرين بشكل غير مشروط. ويستخدم (Ricœur) في شرح هذا الحق مفهوما كانتيا هو مفهوم «الأمر القطعي»، ذاك الأمر الذي يوجب القيام بالفعل احتراما للواجب. إن للضحية الحق في أن تتم مساعدتها بمقتضى أمر قطعي يلزم كل من شاهد الضحية بالإنصات إلى ندائها، لأن في ذلك طاعة للواجب. إنه «أمر قطعي، يتولد عن أمر آخر صوري، متمثل في معاملة الأشخاص كغايات وليس كوسائل» (Paul Ricœur، 1994:155).

ويرى (Ricœur، 1990) أنه لما كان الفعل الإنساني فعلا معياريا، كان من الضروري أن يكون محكوما بمبادئ أخلاقية، كالسعي إلى تحقيق " حياة طيبة للآخرين ومن أجلهم داخل مؤسسات عادلة" (Ricœur، 1990: 202).

ويؤكد الباحثان أن تحقيق هذا الهدف ليس دائما بالأمر الهين واليسير. وهو ما من شأنه أن

يفضي بالفاعل أحيانا إلى الشعور بالتمزق أمام إمكانيات فعل متنوعة ولكنها متعارضة، كفعل الخير للغير ولكن بشكل يتعارض مع القانون. ولذلك فإن لحظة التداول في القيام بالفعل هي غالبا ما تكون لحظة تمزق، قد تتنازع فيها أكثر من سلطة، منها سلطة الضمير وسلطة القانون. وذلك ما يمكن أن ينطبق، في بعض الوضعيات، على الاختصاصي الاجتماعي.

كما اعتبر Emmanuel (Levinas) أنه في ظل الآلام والمآسي التي يعيشها الآخرون تصبح حياة الطمأنينة بالنسبة للفرد مستحيلة. ولا مفر للإنسان في هذه الحالة من طاعة واجب المساعدة، ومن الانفتاح على آلام الآخر والاستجابة لندائه، وفي ذلك تعبير عن المسؤولية الأخلاقية تجاهه، بحيث تكون المسؤولية هي أساس إيتيقا اللقاء بالآخر. وفي انفتاح الأنا على الآخر شعور بالمسؤولية تجاهه. حيث يدرك الأنا أنه لا يمكن له، مهما فعل من خير في علاقة بالآخر، أن يبلغ مرتبة الرضا التام عن النفس. ولا يمكنه أن يعيش الطمأنينة لأنه يظل دوما في حضرة ضرورة إيتقية لا متناهية مضمونها أنه، لا أحد من الناس يمكنه القول إنه قام بواجبه على نحو تام، ولا أحد يدّعي ذلك إلا منافق» (Levinas، 1982: 112). ومن ثم فإن ما يميز وضعية الأنا كذات هي قدرته على الاستجابة الايثيقية لبؤس الغير، أي الفقير والمريض والغريب والأرمل واليتيم (Levinas، 1961: 190). وتتم تجربة العلاقة بين الأنا والآخر عبر ما يسميه (Levinas) بـ «تجربة الوجه. ولا يشير مفهوم «الوجه» إلى عضو محدد في الإنسان بل إن «جسد الإنسان بتمامه وجه» (Levinas، 1982: 104). حيث يستخدم (Levinas) مجاز «الوجه»، في عريه، للتعبير عن فكرة هشاشة الإنسان، «هشاشة الآخر»، وهي هشاشة تتجلى من خلال ألمه وعوزه وضعفه.

وحاصل ذلك أن أساس فكرة المسؤولية الأخلاقية عند (Levinas) هو اضطلاع الأنا بتحمّل آلام الآخر وشقائه وهي مهمة لا يمكن لأحد غيره إنجازها. «إن مسؤوليتي لا ينازعني فيها أحد وما هو بقادر إن فعل» (Levinas، 1982:108). المسؤولية الأخلاقية إذن أمر حصري فضلا عن كونها استعدادا متواصلا من أجل خدمة الآخر واستجابة لنداء المساعدة: إنها تضحية و«انعطاء». وهي أيضا شعور الأنا بالذنب إزاء كل ما يصيب الآخر من ظلم أو عنف: «أفهم المسؤولية بمعنى مسؤوليتي عن الغير وبالتالي مسؤوليتي عما لم أفعله» (Levinas، 1982: 102).

والحق أن واجب المساعدة هو من المبادئ الأساسية للخدمة الاجتماعية، حيث «يعمل الاختصاصيون الاجتماعيون مع أفراد وعائلات وجماعات في وضع هشاشة متزايدة، وتحت نير

مشكلات اجتماعية معقدة... والغاية هي تمكين الأفراد على تحسين وضعياتهم واستعادة قدرتهم على الفعل» (Harper and Dorvil،2013: 3).

وبالرجوع إلى دراسة (سرحان،2006) يظهر بوضوح وجود تأثير للميثاق الأخلاقي على الممارسة المهنية للخدمة الاجتماعية في الجوانب التالية :

- تحقيق أفضل طرق التفكير للأفراد والجماعات وتحديد العلاقات بينهم.
- استخدام أفضل الأدوات والأساليب مع أنساق التعامل.
- تحقيق أعلى مستوى من الأهداف والآمال والنتائج المرجوة في الحفاظ على كرامة الإنسان.
- حماية حقوق الأفراد بتوفير إحساسهم بالأمان والرفاهية في حياتهم.
- تفعيل المشاركة الديمقراطية عن طريق تطبيق مبدأ المساواة والعدالة الاجتماعية.
- تنظيم العلاقة بين المهنيين العاملين بالمهنة والعملاء وزملاء المهنة بالمجتمع.
- عدم التمييز بين عملاء المهنة.
- تحديد شكل الممارسة المهنية لمهنه الخدمة الاجتماعية.(سرحان،2006: 186).

وجليّ، مثلما تبين للباحثين من خلال عرض الميثاق الأخلاقي للاختصاصي الاجتماعي، أن مفاهيم «المسؤولية»، و«احترام الكرامة الإنسانية»، و«وواجب المساعدة» هي من القيم الأساسية التي توجه ممارسة الاختصاصي الاجتماعي، ولكنها في الوقت نفسه من المفاهيم الجوهرية في فلسفات الأخلاق الكبرى. وهو ما يبين أن الخدمة الاجتماعية ليست بمعزل عن الفكر الفلسفي وقيمه.

3 - الإجابة عن التساؤل الفرعي الثالث: ما الأساس المدني للخدمة الاجتماعية؟

لما كانت الخدمة الاجتماعية ممارسة بالأساس فإنها تتنزل ضمن مجال العلاقات مع الأفراد كخواص من جهة، ومع الدولة من جهة أخرى (Love Lock، et al.، 2016: 2). والاختصاصي الاجتماعي يمكن أن يكون موظفاً عمومياً، وأن يكون موظفا عموميا هو أن يكون في خدمة الدولة والمواطنين وفي خدمة الصالح العام، وهو ما يكسب ممارسة الخدمة الاجتماعية بعدا مدنيا في علاقة بمفاهيم المصلحة العامة، والعدالة الاجتماعية، والتضامن، والعيش المشترك. وهي من المفاهيم الأساسية في الفلسفات الاجتماعية. خاصة عند (Jürgen Habermas)[14] و (Axel Honneth)[15].

حيث يرى (Habermas) أنه بالإمكان تنظيم حياة البشر صلب جماعات تنظيما عقليا، بواسطة المعقولية التواصلية. والعقل التواصلي هو العقل القائم على الحوار والنقاشات داخل المجموعة، "إنه عقل يتجسد من خلال شبكات النشاط التواصلي ومن خلال بُنى العالم المعيش" (Habermas، 1988: 381). ويعطي (Habermas) للغة دورا أساسيا في تحقيق الحوار والتواصل بين الأفراد، باعتبار أن البنى التواصلية اللغوية تحمل في طياتها البنى العقلية الكونية وتعبر عن قيم العيش المشترك والتضامن. وتُعتبر "نظرية الفعل التواصلي"، التي صدرت في مجلدين سنة 1981، من أهم أعمال (Habermas)، حيث حاول من خلالها الربط بين العلم والأخلاق مؤكدا على ضرورة أن يكون النشاط الإنساني المدني نشاطا تداوليا أساسه النزاهة والشفافية والنقاش. إذ على "النقاشات أن تصطفي ما هو مقبول بالنسبة إلى الجميع، مميزة بين الاعتقادات التي كانت موضوع اختبار والاعتقادات غير المؤهلة، وبين تلك التي يمكنها الآن المطالبة بمنزلة المعارف التي لا تطرح مشكلة» (Habermas، 2003:75). ومن ثم فإن منزلة المواطن هي منزلة الفرد القادر بواسطة اللغة على التواصل مع الاخرين على نحو يمكنه من التعايش معهم صلب تجربة قوامها الصدق في التداول والنقاش والبرهنة كوسيلة للإقناع والتضامن كغاية. ولا شك أن فكر (Habermas) يمكن أن يوفر أساسا نظريا للمشتغلين بالخدمة الاجتماعية طالما أن شكل علاقتهم بالعميل هو شكل لغوي بالأساس وطالما أن ما يفعلونه مظهر من مظاهر التضامن الاجتماعي صلب مجتمع قائم على التعايش.

ولا يمكن تأسيس بناء مدني دون الاعتراف المتبادل بين مواطنيه. وتعتبر فكرة الاعتراف فكرة محورية في فلسفة المفكر المعاصر (Axel Honneth). وقد انطلق هذا الفيلسوف المعاصر من فكر رواد مدرسة فرنكفورت مثل (Max Horkheimer)[16] و (Theodor Adorno)[17] و(Herbert Marcuse)[18] في اهتمامهم بالمسألة الاجتماعية، كما تأثر بـ (Habermas) الذي يرى في النموذج التواصلي للعلاقات البشرية وسيلة لتحرر الإنسان. ولكن (Honneth) يضيف إلى كل ذلك التأكيد على قيمة مفهوم الاعتراف: يحتاج الإنسان كفرد في المجتمع إلى أن يتم الاعتراف به، أكثر من حاجته إلى مجرد التفاهم اللغوي كما حدده (Habermas). وهذا الاعتراف ضروري في تحقيق ذاته (Houston، 2009: 1282). ويرى (Honneth) ، على إثر (Hegel) أن الحب والحق والتضامن هي النماذج الأساسية للاعتراف، تمكن الفرد من تحقيق ذاته: الثقة في النفس، واحترام الذات، والتقدير الاجتماعي (هونيث، 2015).

يرى الباحثان أن الفرد الذي يحيا صعوبات وانكسارات في المجتمع هو، بمعنى ما، يبحث عن الاعتراف، ووجود اختصاصي اجتماعي يصغي إليه خطوة أساسية في كسب ذلك الاعتراف وتحقيق الذات من خلال الشعور بوجود من يصغي إليه وإلى ندائه. وهو ما من شأنه أن يمكن المستفيد (العميل) من استعادة تكيفه مع المجتمع ومن استعادة دوره فيه، بما ينعكس إيجابا على المجتمع ككل لأنه يجنبه أشكال الصراع والهيمنة بين الأفراد.

4 - الإجابة عن التساؤل الفرعي الرابع: ما الأساس الإبستيمولوجي للخدمة الاجتماعية؟

تُعتبر الإبستيمولوجيا فرعا من فروع القول الفلسفي في المعرفة العلمية. ولفظ«Epistemology» مكون - من زاوية الاشتقاق- من كلمتين يونانيتين قديمتين هما:

«Episteme» وتعني المعرفة، و«Logos» وتعني دراسة أو علم أو نظرية. فالإبستيمولوجيا لغة هي إذن نظرية العلم أو دراسة العلم فلسفيا. نقصد بالإبستيمولوجيا اصطلاحا التفكير الفلسفي النقدي في العلوم، إنها " الدراسة النقدية لمبادئ العلوم وفرضياتها ونتائجها، قصد تحديد أصلها المنطقي (لا النفسي)، وقيمتها ومداها الموضوعي" (Lalande، 1991: 293).

والغرض من الدراسة الفلسفية الإبستيمولوجية للعلوم مدها بتوضيح نقدي حول ذاتها: حول مناهجها ومبادئها وفرضياتها. وتختلف تجليات الدراسة الإبستيمولوجيا بتنوع العلوم: فهناك إبستيمولوجيا الرياضيات، وإبستيمولوجيا الفيزياء، وإبستيمولوجيا البيولوجيا، وإبستيمولوجيا العلوم الاجتماعية. وقد بينت دراسة (هابر، 2012 :27) حول هابرماس والسوسيولوجيا، أن للدراسة الفلسفية الإبستيمولوجية للعلوم الاجتماعية أهمية بالغة لأنها تساعد هذه العلوم على مراجعة ذاتها نقديا. "ففي المقام الأول، يريد التفكير الفلسفي حول العلوم الاجتماعية أن يمدها بتوضيح نقدي حول ذاتها والذي سيكون له أثر إيجابي على تطبيقاتها الفعلية". مثل هذا التوضيح ضروري لأن العلوم الاجتماعية ليست على وعي دائما بالعقلنة التي تقوم بها للواقع: من هنا يجلي الفيلسوف "التصورات الخاطئة التي يمكن أن تكون لرهاناتها، وما يتبع ذلك من توجيهات منهجية خاطئة، وأخيرا، تشكيل مفاهيم وهمية وفرضيات غير وافية بالغرض".

ولعل من بين المشكلات التي يمكن طرحها بخصوص الخدمة الاجتماعية منزلتها الإبستيمولوجية. فالخدمة الاجتماعية، مثلما هو بيّن، ضرب من الفعل أو الممارسة، وكل ممارسة تحتاج إلى أساس نظري تنطلق منه. وهذا الأساس النظري تجده الخدمة الاجتماعية

في علوم عديدة تستند إليها: كعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، والعلوم السياسية، وعلم النفس، وغيرها من العلوم. حيث يبدو من الصعب التفكير في معنى الخدمة الاجتماعية دون ربطها بمجموعة من التخصصات الأخرى التي استفادت منها تاريخيا، إذ «طورت الخدمة الاجتماعية خلال تاريخها، وبالاستعانة بنظريات متأتية من تخصصات أخرى كالطب النفسي وعلم النفس وعلم الاجتماع والأنثروبولوجيا وحتى الفلسفة، مجموعة من المعارف حول تأثيرات المشكلات الاجتماعية، كالفقر، والاضطرابات العقلية، والعنف، وسيرورة وديناميةالإقصاء الاجتماعي، وحول المجموعات المختلفة التي تستهدفها الخدمة الاجتماعية بالبحث» (Harper and Dorvil،2013 :1).

والسؤال الإبستيمولوجي الذي يُطرح في هذا السياق: هل يمكن للخدمة الاجتماعية أن توجد لنفسها أساسا نظريا يولد من صلبها، أم أنها تظل دوما ممكنة بغيرها لا بذاتها؟ وهل يمكن الحديث عن «علم الخدمة الاجتماعية» مثلما نتحدث عن «علم الاجتماع» أو «علم النفس»، وكلاهما نجح في تأسيس خطاب علمي نظري هو شرط إمكانه كعلم من الناحية الإبستيمولوجية؟

تجيب دراسة (Pouteyo، 2012: 53) حول "الفلسفة والخدمة الاجتماعية"، بأنه لا يمكن للخدمة الاجتماعية أن تكون علما قائما بذاته يتوق إلى الكونية مثل الرياضيات أو الفيزياء. وسبب ذلك أن الخدمة الاجتماعية كممارسة تتنزل ضمن مجال الفردية والفرادة: "لا يمكن للخدمة الاجتماعية أن تكون علما. إنها ممارسة تتجلى من خلال الأفعال. إنها فعل لا يمكن التفكير فيه إلا صلب علاقات الإنسان بالآخرين]...[. وإذا كان العلم يهدف إلى إنتاج خطاب يتوق إلى الكونية، من خلال نمذجة علاقات للوصول إلى تفسير الظواهر، فإن الخدمة الاجتماعية تهدف إلى تغيير شروط وجود فرد ما صلب علاقات بينية".

كما بينت دراسة (Healy،2005) أنه عندما نلقي نظرة عامة على تطور أدبيات الخدمة الاجتماعية فإننا نستنتج غياب مدونة معارف خاصة بها. ومعنى ذلك أن المعارف المتعلقة بالخدمة الاجتماعية لم تظهر من رحمها بل في علاقة بتخصصات وأنظمة معرفية أخرى. حيث تتنزل الخدمة الاجتماعية في مفترق عدد مهم من العلوم الاجتماعية التي تستعين بها في بحث موضوعاتها والتعامل معها، وهو ما يعني أن هذا التخصص لم يكوّن خطابا تأسيسيا خاصا به ومتولدا عنه، بقدر ما وضع خطابا تتداخل فيه مقاربات العلوم الأخرى، بحيث إن «الخدمة الاجتماعية ترتكز

على أسس وضعتها في الأصل تلك العلوم الاجتماعية والإنسانية»(Harper and Dorvil، 2013 :5).

فلقد ظهرت الخدمة الاجتماعية صلب الحركات الدينية للقرن التاسع عشر (Harper and Dorvil،2013: 1). حيث طورت المتطوعات في المجال الاجتماعي، اللائي كُن يعرفن باسم «الزائرات الاجتماعيات»، طرقا في التدخل الاجتماعي تستند إلى قيم الرحمة والصدقة (Bogo،2005). وفي بداية القرن العشرين استلهم المتدخلون في المجال الاجتماعي أساليب عملهم من النظريات الاقتصادية والاجتماعية حتى يتخلصوا من هذه الخلفية الدينية ويكسبوا عملهم طابعا علميا(Healy،2005)[19]. كما بدأت الخدمة الاجتماعية في الاقتراب أكثر من النظريات النفسية عامة ونظريات التحليل النفسي على وجه الخصوص (Harper and Dorvil،2013 :6). ولعل ما ميز منزلة الخدمة الاجتماعية بعد الحرب العالمية الثانية تدخل الدولة في مجال تمويل البرامج الاجتماعية، وقد اتجه المتدخلون في المجال الاجتماعي أكثر فأكثر إلى اعتماد طريقة المقاربة عن طريق حل المشكلات في علاقة بوضعيات ومشكلات اجتماعية محددة يعيشها الأفراد والعائلات. ومنذ سنة 1950 اتجه الاختصاصيون الاجتماعيون مجددا إلى الاستفادة من علم الاجتماع والاستعانة بالعلوم السياسية والأنثروبولوجيا والفلسفة (Healy، Karen: 2005).

ولسائل أن يسأل: ما الذي يمكن أن تستفيده الخدمة الاجتماعية من الفلسفة؟

5 - الإجابة عن التساؤل الفرعي الخامس: ما هي وجوه استفادة الخدمة الاجتماعية من الفلسفة؟

يمكن للخدمة الاجتماعية أن تستعين بالمقاربة الفلسفية في مجالين على الأقل: تعزيز الخطاب النظري للخدمة الاجتماعية، وتكوين الاختصاصيين الاجتماعيين.

فبالنسبة إلى تعزيز الخطاب النظري صلب الخدمة الاجتماعية، تبين لنا سابقا أن هذا التخصص يستعين بكثير من العلوم الاجتماعية والإنسانية لإنشاء هذا الخطاب النظري، ويمكن للفلسفة أن تشكل واحدا من هذه الروافد التي تسند الخدمة الاجتماعية نظريا. حيث يمكن للفلسفة أن تساهم بإنشاء «خطاب عقلاني حول الخدمة الاجتماعية».

وفي هذا المجال بينت دراسة (Pouteyo، 2012: 55) أنه على الرغم من أن الخدمة الاجتماعية ممارسة وليست علما نظريا، فإنه بوسعها الاستعانة بالفلسفة لتكوين خطاب نظري خاص بها، حيث "يمكن للأداة الفلسفية أن تساعد في تكوين الخدمة الاجتماعية كمجال محدد

وموضوع لاختبار نظري". وتبين هذه الدراسة أن الفلسفة قد ارتبطت منذ الإغريق باللوغوس (أي العقل)، ولهذا يمكن أن تساهم في بلورة خطاب عقلاني حول الخدمة الاجتماعية، وذلك "بالتفكير في معقولية الخدمة الاجتماعية، وفي الخطاب الذي ينتجه والذي يتجلى في مواضيع عديدة: يتجلى فيما يقوله ويكتبه الاختصاصي الاجتماعي، وفيما تنجزه المشرفة الاجتماعية خلال لقاء مهني، وفيما يكتبه الاختصاصي التربوي كتقرير يقدمه لقاضي الطفولة». فجميع هذه الوثائق تشكل خطابات لها معقولية خاصة يمكن الكشف عنها بواسطة اللوغوس الفلسفي، بتحليلها وتصنيفها لتعزيز البناء النظري للخدمة الاجتماعية. وفي هذا السياق من الممكن الاستعانة بأدوات التحليل الفلسفي والمنطقي للغة والخطاب (وهي أدوات برع في استخدامها رواد مدارس فلسفية معاصرة كالفلسفة التحليلية والمدرسة الوضعية المنطقية)، حيث تكون «مهمة الفلسفة دراسة المفاهيم التي من خلالها تمارس الخدمة الاجتماعية»(Pouteyo، 2012: 55). ذلك أن الخدمة الاجتماعية، كممارسة، تعتمد على اللغة، سواء كانت شفوية أم كتابية في شكل تقارير جميعها يمكن أن تكون مواضيع للتحليل والبحث بل وحتى للنقد الذاتي. ويعتبر منهج النقد من الآليات المهمة التي قامت عليها بعض الفلسفات الاجتماعية المعاصرة كمدرسة فرنكفورت التي ينشغل روادها، مثل (Herbert Marcuse)، بالنقد الاجتماعي من خلال تمحيص المفاهيم والألفاظ المستخدمة وكشف ضمنياتها وأبعادها غير المعلنة.

ولعل الوعي بهذا الدور الذي يمكن أن تقدمه الفلسفة هو الذي جعل الكثير من مراكز التكوين في الخدمة الاجتماعية، في أوروبا، تدرج مقررات فلسفية ضمن خطة تكوين الاختصاصيين الاجتماعيين. ففي فرنسا مثلا (وتحديدا في مدرسة الخدمة الاجتماعية بباريس EES)، يدرس الطالب المتخصص في الخدمة الاجتماعية الفلسفة مثلما يدرس القانون وعلم الاجتماع وعلم النفس وعلم الاقتصاد والديموغرافيا وعلوم الصحة). ومن بين أهم المقررات الفلسفية التي يتم تدريسها الفلسفة السياسية وفلسفة الأخلاق. والحق أن الفلسفة يمكن أن تحمل أضواء تنير عديد المفاهيم المستعملة في الخدمة الاجتماعية من قبيل المسؤولية الأخلاقية واحترام الكرامة الإنسانية واستقلالية الإنسان...إلخ. فضلا عن التفكير في مسألة فعل الاختصاصي الاجتماعي والأسئلة المتعلقة بها من قبيل: أي معنى لما نفعله؟ ما الغاية منه؟ وكيف يكون فعلا محترما للكرامة الإنسانية وغير متعارض مع القيم والمثل العليا؟

ولكن ينبغي التنبيه إلى أن القصد من تدريس الفلسفة للمتكونين في مجال الخدمة الاجتماعية ليس مجرد توسيع ثقافتهم بل التوعية بطبيعة المشكلات الأخلاقية التي تعترض الاختصاصي الاجتماعي. كما أن تدريس الفلسفة لا يعوض مطلقا العلوم ويقوم مقامها بل يسندها ويوسع أفقها.

الخاتمة:

وقصارى القول إن للخدمة الاجتماعية أسسا فلسفية إنسانية وإيثيقية ومدنية وإبستيمولوجية، كما أن الخدمة الاجتماعية، كشكل من أشكال الممارسة أو الفعل الإنساني، يمكن أن تجد في الفلسفة، كتفكير نقدي، ما يساعد على بناء خطاب عقلي حول معنى الفعل وغاياته، على نحو يفيد في الإجابة عن أسئلة يطرحها الاختصاصي الاجتماعي من قبيل: ما الذي يجب فعله، ما ينسجم مع الضمير أم ما ينصاع للقانون أم الأمرين؟ وما هي غايات الفعل من الزاوية الأخلاقية؟ ومتى يكون الفعل أخلاقيا؟ وأي معنى للمسؤولية؟ وكيف ينبغي أن تكون العلاقة بالغير؟ وأي معنى لواجب المساعدة؟ وكيف تكون مساعدة الغير واجبا عقليا وأخلاقيا؟ وكيف السبيل إلى أن تكون الممارسة في مجال الخدمة الاجتماعية سبيلا لتعزيز مفاهيم التضامن والعيش المشترك؟ وغير ذلك من الأسئلة الإشكالية التي تعترض الاختصاصي الاجتماعي سواء خلال التكوين أو خلال ممارسة المهنة. ولكن الفلسفة التي يمكن أن تقوم بهذه المهمة، ليست الفلسفة الميتافيزيقية التي تعرض عن الواقع، بقدر ما هي فلسفة تطبيقية تفكر في التجربة الإنسانية بشكل يمكن أن يستفيد منه الاختصاصي الاجتماعي. وهي الفلسفة التي لا تدعي أنها تقوم مقام العلوم بقدر ما أنها تفتح لها أفقا نقديا من خلال النقد الذاتي وطرح أسئلة المعنى والغاية.

ولا شك أن ما تم التوصل إليه في هذا البحث النظري من نتائج يظل في حاجة إلى دراسة تكميلية مطبقة على اتجاهات المكونين الاجتماعيين، والمسؤولين التربويين والأكاديميين من المتخصصين في الخدمة الاجتماعية وفي الفلسفة، نحو الاستعانة بالفلسفة سواء في تكوين الاختصاصيين الاجتماعيين أم في البحوث العلمية المتعلقة بالمشكلات الاجتماعية. فنتائج هذه الدراسة التطبيقية مهمة لمعرفة العلاقات الممكنة بين الفلسفة والخدمة الاجتماعية واقعيا وليس نظريا فحسب. وهو ما يمكن أن يكون موضوع دراسة منفصلة.

المراجع

مصادر ومراجع عربية

1. أبو الفضل ابن منظور، (1997). لسان العرب. مادة حكم. المجلد 12. دار صادر. بيروت.
2. أحمد حمزة، (2015)، المدخل إلى الخدمة الاجتماعية. دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة. عمّان، المملكة الأردنية الهاشمية.
3. أحمد محمد السنهوري، (2006). موسوعة منهج الممارسة العامة المتقدمة للخدمة الاجتماعية وتحديات القرن الواحد والعشرين الميلادي. دار النهضة العربية. القاهرة. جمهورية مصر العربية.
4. أكسل هونيث، (2015). الصراع من أجل الاعتراف، القواعد الأخلاقية للمآزم الاجتماعية. ترجمة وتحقيق جورج كتورة. المكتبة الشرقية. بيروت. لبنان.
5. إمانويل كانت، (2002). تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق. منشورات الجمل. كولونيا.
6. جمعية الاجتماعيين العمانية (2015). الميثاق الأخلاقي للاختصاصي الاجتماعي في سلطنة عمان.
7. رابطة الاجتماعيين الكويتية (2013). الميثاق الأخلاقي للاختصاصيين الاجتماعيين بدولة الكويت.
8. سانجاي سيث، (2011). "النزعة الإنسانية إلى أين؟". مجلة رسالة اليونسكو الجديدة: 64. 7-11.
9. ستيفان هابر، (2012). هابرماس والسوسيولوجيا. ترجمة وتقديم محمد جديدي. منشورات ضفاف. بيروت. بيروت.
10. سيد أبو بكر حسانين، (2006). الخدمة الاجتماعية: النشأة والتطور. مكتبة عين شمس، القاهرة. جمهورية مصر العربية.
11. عبد الرحمن صويغ عثمان، ، محمود عرفان سرحان، ، (2014)، المدخل إلى الخدمة الاجتماعية: الأسس النظرية ومجالات الممارسة. ط 1. دار الكتاب الجامعي. الجمهورية اللبنانية-الامارات العربية المتحدة.
12. عبد العزيز عبد الله البريثن، (2008). "نحو تصور لصياغة دستور أخلاقي عربي للخدمة الاجتماعية". مجلة دراسات في الخدمة الاجتماعية والعلوم الإنسانية: 1 (24)، 301-328.
13. عبد المحي محمود حسن صالح، (2004). الخدمة الاجتماعية ومجالات الممارسة المهنية. دار المعرفة الجامعية. الإسكندرية. جمهورية مصر العربية.
14. عثمان، وآخرون، (2010)، مقدمة في الخدمة الاجتماعية. مكتبة الأنجلو المصرية. جمهورية مصر العربية.

15. ماهر أبو المعاطي علي، (2003). الممارسة العامة في الخدمة الاجتماعية، أسس نظرية، نماذج تطبيقية. مكتبة زهراء الشرق. جمهورية مصر العربية.

16. مصطفى خاطر، (2004). الخدمة الاجتماعية، مفاهيم الممارسة، مجالات العمل. المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية. مصر.

17. مصطفى عبدة، (1999). فلسفة الأخلاق. مكتبة مدبولي. القاهرة. جمهورية مصر العربية.

18. نظيمة أحمد سرحان، (2006). الخدمة الاجتماعية المعاصرة. الطبعة الأولى. مجموعة النيل العربية. القاهرة. جمهورية مصر العربية.

مراجع أجنبية

19) BENOIT، Didier (2013). "La question de l'éthique en travail social : entre sens et réalité"، Le Colporteur، Bulletin d'Informations du CREAI.، n° 337.

20) Bogo، M. (2005). Social Work Practice: concepts، Processes and Interviewing، Columbia University Press. New York.

21) Bouquet، Brigitte (2013). «Responsabilité éthique du travail social envers autrui et envers la société une question complexe». Revue Vie Sociale. 3. 43- 55.

22) Clark، C.L. (2000). Social Work Ethics: Politics، Principles and Practice. Hampshire and New York. Palgrave.

23) Habermas، Jürgen (1988). Le discours philosophique de la modernité. Paris.

24) Harper، Elisabeth and Dorvil، Henri (Ed). (2013). Le travail social، Théories، méthodologies et pratiques. Presses de l'université de Québec. Canada.

25) Healy، Karen. (2005). Social work theories in context: Creating Frameworks for Practice. Palgrave Macmillan. Basingstoke.

26) Houston، Stan (2009). «Communication، Recognition and Social Work: Aligning the ethical theories of Habermas and Honneth». British Journal of Social Work. 39.

27) J.G. Konopka، Edward Lindman. (1987). Social Work Philosophy. The University Minnesota Press. U.S.A.

28) Hugman، Richard (2014). A-Z of professinal ethics. Palgrave Macmillan. UK.

29) Lalande، André، (1991). Vocabulaire technique et critique de la philosophie. P.U.F. Paris.

30) Levinas، Emmanuel (1961). Totalité et infini. MNP. Paris.

31) Levinas، Emmanuel (1982). Ethique et infini. Fayard. Paris.

32) Love Lock، Robin and Others (2016). Reflecting on Social Work-Discipline and Profession. Routledge. London.

33) Pouteyo، Michael (2012). "Philosophie et travail social، comment contribuer à la constitution d'un champ et d'une méthode propre en travail social"، Revue Pensée plurielle. 30. 51- 63.

34) Ricœur، Paul (1990). Soi-même comme un autre. Seuil. Paris.

35) Ricœur، Paul (1994). «L'intervention: entre la souffrance des victimes et la violence des secours». Esprit. 199 (2). 154 -159 .

الهوامش:

1. Emmanuel Kant (1724- 1804)، فيلسوف ألماني من أهم مؤلفاته: نقد العقل المحض (1781)، نقد العقل العملي (1788)، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق (1785) نقد ملكة الحكم (1790).
2. Thomas More (1478- 1535)، فيلسوف اجتماعي إنسانوي إنكليزي
3. Desiderius Erasmus (1466- 1536)، فيلسوف ولاهوتي إنسانوي هولندي
4. Andreas Vesalius (1514- 1564)، فيزيائي بلجيكي
5. Leonardo Da Vinci (1452- 1519)، فيلسوف ورسام وفلكي وشاعر ورياضي إيطالي
6. Denis Diderot (1712- 1784)، فيلسوف وناقد أدبي فرنسي، من رواد عصر التنوير
7. (Voltaire 1694- 1778)، فيلسوف وكاتب ومؤرخ فرنسي، من رواد عصر التنوير
8. Jean Jacques Rousseau (1712- 1778)، فيلسوف فرنسي أثر في حركة التنوير، وله إسهامات مهمة في مجالات الفلسفة السياسية والأخلاقية والتربوية
9. Montesquieu (1689- 1755)، محامي وفيلسوف فرنسي من منظري التنوير
10. John Locke (1632- 1704)، فيلسوف وفيزيائي إنكليزي، يعد من أبرز الذين أثروا في فكر عصر التنوير
11. David Hume (1711- 1776)، فيلسوف ومؤرخ واقتصادي سكوتلندي
12. Emmanuel Levinas (1905- 1995)، فيلسوف فرنسي من أصل ليتواني، له إسهامات في مجال الفلسفة الأخلاقية والدراسات التأويلية

13. Paul Ricœur (1913 -2005)، فيلسوف فرنسي، من رواد الفلسفة الفينومينولوجية في فرنسا

14. Jürgen Habermas (ولد سنة 1929)، فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، له إسهامات في مجال الفلسفة الاجتماعية والسياسية وفي مجال النظرية السوسيولوجية.

15. Axel Honneth (ولد سنة 1949)، فيلسوف ألماني معاصر، من أهم كتاباته "الصراع من أجل الاعتراف" (1992)، "مجتمع الاحتقار" (2002)، "التشيؤ" (2005)، "مفارقات الرأسمالية" (2006).

16. Max Horkheimer (1895 -1973)، فيلسوف ألماني له إسهامات في مجال النظرية النقدية وهو من رواد مدرسة فرنكفورت

17. Theodor Adorno (1903-1969)، فيلسوف وعالم اجتماع ألماني، من رواد مدرسة فرنكفورت النقدية

18. Herbert Marcuse (1898 -1979) فيلسوف أمريكي من أصل ألماني. من رواد مدرسة فرنكفورت النقدية. من أهم مؤلفاه: العقل والثورة (1941)، إيروس والحضارة (1955)، الإنسان ذو البعد الواحد (1946).

19. عرفت بداية القرن العشرين ظهور عديد المؤلفات في مجال العمل الاجتماعي ومنها:

Richmond, Mary. (1917). Social Diagnosis; (1922).Social Casework; Addams, Jane. (1902) .Democracy and Social Ethics

The philosophical foundations of Social Work

PROF.DR ABDELRAHMAN SOFY OSMAN •
DR NOURALDIN ALSHABI ••

Abstract

Since philosophy is related to metaphysics, the public believes that it is a theoretical study separate from reality. That seems to be the case, but a profound view shows that philosophy is not so strange to human reality. Perhaps that explains the existence of a related subject, in Philosophy, called "social philosophy" and "social thinking". Similarly, Social Work is not entirely alien to philosophy, as long as it can benefit from it.

This research has achieved two main objectives; the first one, which is a theoretical goal, is to identify the nature of the relationship between Philosophy and Social Work by clarifying the importance of the philosophical approach of issues related to Social Work, as well as to identify the philosophical, human, ethic, civil and epistemological foundations of Social Work. The second objective, which is a practical one, is to think about the ways to benefit, in reality, from the philosophical approach of the individual, and essentially to promote the theoretical discourse of Social Work, and to form the personality of social workers.

This research is based on the analytical-synthetic method, which, in the first step, divides the main problem into sub-problems and tries to understand each of them individually, and to extract, in a second step, synthetically, the general results.

Keywords: Philosophy, philosophical foundations, Social Work.

• Sociology and Social Work Department - College of Arts and Social Sciences - Sultan Qaboos University

•• Sociology and Social Work Department - College of Arts and Social Sciences - Sultan Qaboos University